الدكتور صلاح المختار

جذور العداء الأمريكي الصهيوني لحزب البعث العربي الإشتراكي







منشورات الطليعة
1997

جذور العداء الأمريكي الصهيوني لحزب البعث العربي الإشتراكي

الدكتور صلاح المختار

بغداد 1993

استهلال

حينما سمع الرأي العام العربي يوم ١٧/٧/١٩٦٨ البيان الأول للثورة العراقية لم ينتبه كثير من المثقفين العرب للمغزى العميق والبعيد لتأكيده على ان الثورة هي رد عملي على هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ! ففي ذلك الوقت كانت جميع النظم العربية منغمسة في ممارسات لا ترقى لمستوى التحدي الصهيوني المدعوم من قبل الامبريالية ، لذلك افترض العديد من المراقبين ان ما ورد في البيان الاول للثورة كان محض كلام يساق للتأثير على الرأي العام أو لتبرير القفز الى السلطة !

ولكن ، وبعد أن تمت عملية التخلص من العناصر الطارئة والمشبوهة، أو تلك المتخلفة الوعي والرؤيا ، وطرحت برامج طموحة في مطلع السبعينات مقترنة بخطط عمل أخذت تنفذ ، رأينا ظاهرة غريبة تتبلور : ففي حين احتشدت القوى الرجعية والموالية للصهيونية والغرب في جبهة عريضة معادية للثورة العراقية وجاهرت بعدائها وخططها التي قامت على القضاء على الثورة أو في الأقل التخلص من عقلها المدبر والمفكر ، حزب البعث

العربي الاشتراكي ، فان القوى والعناصر القومية التقدمية توزعت بين مناهض لمسيرة الثورة العراقية أو مشكك بجدية شعاراتها أو مترقب لا موقف له !

وهكذا اندلع صراع سري وعلني متواصل منذ مطلع السبعينات ، كان قاسياً ومتشعباً ، مموه تارة بشعارات وطنية وقومية أو يسارية ، وتارة أخرى يزحف باسم الديمقراطية وحقوق الانسان ، لكنه في أحوال أخرى كان يدار باسم القوى الغربية الصهيونية علناً !

لقد انفردت هذه القوى بالعراق وثورته وبقيت قوى عديدة داخل العراق وخارجه ، تتخذ تارة موقف الناقد ، وتارة أخرى موقف المناهض الشرس للثورة ، برغم ان قيادة الثورة قد فتحت الابواب مرات عدة لعقد مصالحات وطنية داخل العراق ، وقومية خارجه من أجل المصير العربي المشترك .

وفي حين كانت قيادة الثورة تؤكد باستمرار ان هذا التآمر الشرس على العراق مبعثه ودافعه هو استيلاء قوة ثورية قومية على السلطة وعزمها على تأسيس دولة عصرية قوية ومتقدمة تكون نموذجاً للنهضة العربية وبداية للمشروع القومي النهضوي الكبير ، فان أغلبية أفراد الانتلجنسيا العربية والقوى السياسية التقدمية والقومية في الوطن العربي بقيت تنظر لما كان يجري في العراق نظرة شك أو ترقب أو لا مبالاة !

وما ان مر عقد من الزمان على الثورة حتى برزت شواهد قاطعة تؤكد ان العراق لم يعد هو ذاته عراق التخلف والضعف والتشتت ، بل صار مملوءاً بالحيوية والتقدم والنهوض ، لدرجة ان الغرب والصهيونية شرعا ، وبصورة علنية ، بحمل معاول التهديم والتآمر العلنيين وتحت شعار منع العراق من الاخلال بسوازين القوى الاقليمية !

وقتها ، وعلى وجه التحديد منذ ضرب مفاعل تموز النووي عام ١٩٨١، طرحت أسئلة غاية في الخطورة والجدية ومن بينها : لماذا قصفت اسرائيل

المفاعل مع انه ، وكما أكـدت الأحداث ، كان مصمماً للاغراض المدنيـة الصرف ؟ ولماذا تم ذلك بغطـاء اميركي ومساعدة استخبارية اميركيـة ـ بريطانية ـ فرنسية ؟

وتوسع نطاق الاسئلة ، وعاد البعض للخلف بضع سنوات : لماذا أصلاً تلك الحرب التي تصر ايران على مواصلتها وتجاهر علناً أنها تستهدف مـن ورائها اسقاط عقل الثورة وقائدها الرئيس صدام حسين ؟ بل ما هي أسرار اسقاط الشاه وبوجود مؤشرات على تورط المخابرات الاميركية فيه ؟ وهل لذلك صلة بما كان يجري في العراق من تفاعلات وتطورات علنية وسرية ؟

ولمـاذا «رجح» الغرب الخمينيـة كبديل للشاه وراح يشـجعها على مواصلة الحـرب بطرق عديدة أبرزهـا رفض الضغط عليها عبر الغـذاء والسلاح ؟ وهل لذلك علاقة بفشل الخطط السـابقة للقضاء على الثـورة العراقية من الداخل فأصبح ضرورياً القضـاء عليها بغزو خارجي مدعـوم بايديولوجيا طائفية ـ دينية أريد بها خلخلة بنية المجتمع العراقي ؟

مئات الاسئلة طرحت ، وأكثرها لم يجد الاجابة القاطعة ، فظلت تدور في الاذهان وتحير العديد من الباحثين والكتاب العـرب ، الذين بقي أغلبهم يتفرج على الصراع الدامي بين ثـورة العراق ، التي تميزت بالعصرانيـة والتقدم العلمي ـ التكنولوجي والمنهج القومي الذي يصـر على تحقيـق الوحدة العربية ، وبين ما سمي بـ « الثورة الاسلامية في ايران » التي لـم تنجح قياداتها ، ورغم سخونة وكثافة شعاراتها الدينية المعادية « للشيطان الأكبر » ، أي أميركا ، في إخفاء أهم وأبرز عيوبها : تركيز قواهـا ضـد العرب ، وعلى أفضل ما في نظم العرب : تجربة العراق ، بدل توجيه الجهود ضد الصهيونية والامبريالية •

وفي هذا الصراع المصيري الطويل ، بدأ العديد من المثقفين العـرب والاحزاب العربية يرى ما لم يكن يراه في السـنوات السـابقة : فالنموذج

العراقي الجديد لا يشابه النماذج العربية السابقة ، وإنما هو نموذج يتسم بخصائص غريبة على أوضاع التدهور والتراجع والتخلف والانقسام في الوطن العربي ، مثل قدراته العالية والمتميزة على البقاء ، ونجاحاته المذهلة في استيعاب التكنولوجيا الحديثة والاضافة اليها ، وتجاوزه الذكي لفترات حرجة كان مستحيلاً تصور وجود طرف عربي قادر على تجاوزها ، وأخيراً وليس آخراً نجاحاته الباهرة في تأمين مستوى رفاهية ممتاز للشعب العراقي أثناء أكثر الحروب تكلفة ورغم توقف أغلب صادراته النفطية !

كيف نجح العراق في كل تلك المهام المعقدة والصعبة جداً لو لم يكن بناء مجتمعه ودولته قوياً وراسخاً ومتجاوزاً لحدود ما يسمى بـ « دولة التخلف » ؟ ومتى قام ذلك ؟ وعلى أي أسس استند ؟

هنا بدأ الجميع ، العرب والأجانب ، الأصدقاء والاعداء يتحدثون عن ولادة مخلوق جديد في الشرق الاوسط ، ويستعمل كل طرف مفردات تنسجم مع رؤيته الستراتيجية ومصالحه الخاصة ، فالغرب والصهيونية شرعا بالتحدث عن عراق قوي وخطر تجاوز الخطوط الحمر ، أما العرب والعالم الثالث فتحدثا عن ولادة نموذج ناجح للنهضة كسر قيود التخلف الحديدية وقيود المنع والردع التي وضعها الغرب !

ولذلك فان الفترة بين عام ١٩٨٦ وعام ١٩٩٠ ، كانت مرحلة اكتشاف الجميع التدريجي لبروز نموذج متقدم للنهضة القومية في العراق . ففي عام ١٩٨٦ أدرك كل خبير ستراتيجي ان حرب الخليج الاولى قد حسمت ستراتيجياً لصالح العراق وان ايران ستنهار أو تقبل بالهزيمة ، رغم تفوق ايران في مجالات عديدة .

ولم يكد العالم يمتص أثر الهزة التي أحدثتها هزيمة ايران الرسمية عام ١٩٨٨ حتى جاء عام ١٩٩٠ ليحدث زلزالاً ضرب كل دول الشرق الاوسط وهز التوازنات الاقليمية ومس التوازنات الدولية ، حينما رد العراق ، على لسان قائده في نيسان من ذلك العام على تهديدات اسرائيل

بقصف منشآت انتاجية وعلمية وعسكرية عراقية ، بالتأكيد على ان العراق سيرد على اسرائيل إذا استخدمت اسلحة نووية بالسلاح الكيمياوي المزدوج!

هكذا ولد مخلوق جديد وقوي بطريقة أربكت تقريباً كل الاطراف ! مخلوق خرج على الطوق وكسر المحظورات الغربية ـ الصهيونية وداس على أصابع المتدخلين الاقليميين في شؤون العرب • لقد أدرك العرب مشرقاً ومغرباً ان حلم الأمس واليوم قد تحقق وتجسد في العراق ، حلم أن يكون للعرب دولة قوية ومتقدمة تزيل من طريقهم عقبات وحدتهم ونهضتهم •

الفصل الاول

النموذج : مفاهيم ونماذج

المبحث الاول : مفهوم النموذج

لنحدد أولاً ما المقصود بمشروع أو نموذج النهضة القومية أو الحضارية العربي ، فالحديث يدور عنه بهذه الصيغة أو تلك منذ بداية هذا القرن ، لكنه تبلور مع ظهور حزب البعث العربي الاشتراكي في الأربعينات، وتركيز نضاله على امتداد الوطن العربي على فكرة البعث القومي مجسدة في قيام دولة عربية كبرى موحدة ومتقدمة وتمثل قوة عالمية من الطراز الاول بكل المعايير •

صحيح ان هذا الهدف (والطموح) قد ظهر قبل البعث، كحزب وتنظيم، إلا ان مشروع النهضة العربية الحديث قد جسد وصيغ بأفكار ومفردات بعثية بارزة لا مجال لانكارها أبداً • والمرحوم جمال عبدالناصر حينما برز بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، بصفته رمزاً وقائداً للمشروع

النهضوي القومي ، تبنى آنذاك أساسيات الفكر القومي ـ الاشتراكي لحزب البعث العربي الاشتراكي ، مثل الوحدة العربية الشاملة ، وتحقيق دولة عصرية متقدمة يسود فيها العلم والرخاء والعدالة .

وبتأثير هذه الحقيقة التأريخية فان أغلب الاحزاب والحركات التي ولدت عقب الخمسينات قد تبنت بهذا القدر أو ذاك أفكار البعث عن مشروع النهضة ، وحاولت صادقة أو غير صادقة ، السير في هذا الطريق .

إذن جوهر المشروع النهضوي القومي هو النجاح في بناء نموذج مشرق يستطيع اجتذاب الشعب العربي والتعبير عن طموحاته في اقامة دولة عصرية متقدمة وكبيرة تقف على قدم المساواة مع القوى الكبرى اقليمياً ودولياً وتزداد قيمتها ويتعمق ويتسع دورها بمرور الزمن .

ولئن كان المشروع القومي هذا يستهدف في النهاية ضم كل الاقطار العربية في اطار هذه الدولة الواحدة المتقدمة والقوية فان الضرورات العملية، ممثلة في العقبات الموضوعية والاصطناعية الاقليمية والدولية ، قد اقتضت ان يبدأ مشروع النهضة في قطر عربي ، أو قطرين ، لكي يتجسد جوهر المشروع مادياً وروحياً ويقنع الجماهير بتشديد النضال من أجل إكمال مقوماته وعناصره وتوسيع نطاق شموليته .

وهكذا ظهرت فكرة الدولة النموذج للمشروع النهضوي ، بصفتها خطوة حث كبرى في طريق البعث القومي الشامل والكامل . وحينما قامت وحدة عام ١٩٥٨ بقيادة المرحوم جمال عبدالناصر وحزب البعث العربي الاشتراكي ، عُدّ اندماج مصر وسوريا آنذاك بدايةً ونموذجاً لما ينبغي للعرب أن يحققوه بالنضال والصبر .

إلا ان التآمر الامبريالي ـ الصهيوني ـ السعودي بالدرجة الاولى والأهم ، ثم نقاط الضعف الفكرية والتنظيمية في تلك التجربة قد أجهضتها ، وبذلك أحبط أول مشروع نهضة قومية في نصف القرن الحالي . وكان ذلك

الفشل قد حصل في بيئة طغت فيها حالات التداعي والانهيارات وتراجع المد القومي وصعود النزعات القطرية المقترنة بسياسات التبعية للامبريالية والاستعداد للتعاون مع الكيان الصهيوني •

ولهذا فان المثقفين العرب قد تعرضوا لأقسى اختبار تأريخي لدورهم ولأهليتهم ورسوخ وعيهم • ففي حين كان مفروضاً أن تقوم (الانتلجنسيا) العربية ، بدور القائد المقتدر لعملية التنظير القومي الضروري لتفسير ما حدث وتأكيد ان الفشل المشار اليه لا يعني خطأ المبادىء والأهداف الكبرى ، وإنما يعني تفوق قدرات الأعداء المادية من جهة وعدم كفاية خبرة وقدرات قيادة أول مشروع نهضوي حديث من جهة ثانية ، رأينا البعض من الانتلجنسيا العربية ينساق يائساً مع الطروحات الغربية ـ الصهيونية التي قامت على محاولة نسف أي أساس للنهضة العربية ونفي وجود أي أساس للوحدة العربية ! والتشكيك أصلاً بوجود أمة عربية !

وهكذا اقترنت ظاهرة فشل المشروع النهضوي الأول بكبوة المثقفين البورجوازيين الصغار غير المرتبطين بحركات ثورية وانسياق بعضهم مع التنظيرات والدعاية المعادية ، فراحوا يشككون بوجود أي أساس لوحدة العرب ، بل ذهب بعضهم أبعد من ذلك وأخذ يشكك بكفاءة الانسان العربي بالذات طاعناً في قدراته ومؤكداً انه متخلف بطبعه بالمقارنة مع الانسان الغربي والصهيوني ، وقد تبلور هذا النهج عقب هزيمة عام ١٩٦٧ !

١ ـ النموذج الناجح

ولهذا يمكن بسهولة ملاحظة ان الكثير من المثقفين العرب الذين برزوا في الخمسينات والستينات ، واتسم دورهم بالتفسير والتبرير ، وليس بالقيادة ، قد تعاملوا بحذر وتشكيك مع بدايات مشروع النهضة الجديد في العراق الذي بدأت ملامحه الاولى تتكون وتظهر في منتصف السبعينات ،

يدركون بدقة وصواب طبيعة التغييرات الجذرية التي كانت تحدث في العراق ووضع أسس مشروع نهضوي قومي كبير ، فان قسماً من المثقفين العرب قد بقي عاجزاً عن رؤية هذه الولادة وعن متابعتها ، وهو أمر حرمهم من القدرة على التفاعل الايجابي المبكر معها ، كما حرم مشروع النهضة من اسهامات الكثير من المفكرين التقدميين •

من هنا فان التركيز المفاجىء نسبياً على ظاهرة العراق المتقدم والقوي في فترة زمنية قصيرة جداً ابتداءً من عام ١٩٨٦ تقريباً ، قد أربكت هذا البعض من المثقفين العرب ، لأنهم فوجئوا بأن المفكرين والخبراء في الغرب، لا يعترفون فقط بولادة مركز عربي متقدم وقوي ومؤهل لاستقطاب الدول العربية الأخرى ، بل يرون فيه أيضاً خطراً على توازنات المنطقة والعالم •

لقد انهمرت على رأس المثقف العربي أطنان من قنابل الدعاية المعادية للعراق وبالأخص منذ عام ١٩٨٨ ، ونبهت العالم الى حقيقة ان في الشرق الاوسط مركزاً قوياً ومتقدماً لم يتابع الاعلام العلني تاريخ بروزه وتكونه ، وكأنه تكون وتطور في قنوات سرية ثم برز فجأة ! وكانت تلك نقطة البداية في تحول مواقف العديد من المثقفين العرب ودعمهم لمشروع النهضة الذي برز العراق تجسيداً لآمالهم وطموحاتهم •

٢ـ مقومات النموذج

لقد جرى الحديث لعدة عقود من الزمن عن مقومات وشروط النموذج النهضوي العربي الحديث ، وبرغم الاختلافات العديدة التي ظهرت حول ذلك ، إلا ان ثمة اجماعاً على ان المشروع النهضوي ونموذجه ينبغي أن يمتلك خصائص محددة أبرزها خصيصة النجاح في بناء مجتمع مرفه أو عادل، أو كليهما ، يتحرر فيه المواطن من العوز والفقر والأمية والخوف وعدم الاعتراف بقيمته الانسانية والسياسية ، ويسود فيه القانون على الجميع •

إن هذا التحديد يقترن بالأخذ بنظر الاعتبار امكانات القطر الذي يقوم فيه النمـوذج ، من زوايا الثراء والظروف الاجتماعية والتحديات الخـارجية ، فكلما ازداد الثراء الطبيعي وتجانس المجتمـع وقلت التحديات الخـارجية سهلت مهمة بناء النموذج شبه المتكامل والعكس صحيح •

أما الخصيصة الثانية فهي النجاح في استيعاب العلوم الحديثة وتطبيقها العملـي ، أي التكنولوجيـا ، والانتقال من مرحلـة التقليد في الصناعـة والتكنولوجيا ، الى مرحلة الابداع والابتكار والاضافة ، وبمستوى يرتقي ببلد النموذج الى مستوى رفيع يمكنه من انتاج الكثير من سلعه الصناعية، خصوصاً تلك التي تحرم عليه !

وبطبيعة الحال فان المقصود بتحقيق التقـدم العلمي ـ التكنولوجي ليس الاستغناء عن العالم ، بل بناء قاعدة ذاتية تصلح لتحول دولة النمـوذج الى طرف منتج ومبدع يعطي في هذا المجال مثلما يأخذ ، وبما يمكّنـه من كسر كل أنواع الحصار التكنولوجي ـ العلمي ودفع العـرب الى عصـر التكنولوجيا ، خصوصاً المتقدمة منها •

وهذه الخصيصة لا توفر التقدم وسد الحاجات الحيوية فحسب ، بل تؤمن أيضاً الاستقلالية السياسية وتدعم قاعدتها وتزيد من قدرة العـرب على مقاومة الضغوطات وعمليات التآمر وتنبه الاعداء الى ان للعرب « أنياباً حادة » قد تستعمل عند الضرورة !

والخصيصة الثالثة هي وجود نظام سياسي متطور ومتقـدم وراسـخ يقوم على المركزية والتعددية في الوقت نفسه • فبدون وجود نظام سياسـي قوي ومقتدر لا يوجد نموذج حضاري متقدم ، وبدون الربط بين مركزيـة صنع القرار النهائي الكبير ونظام التعددية السياسية ، وربما الفكرية ، تحت مظلة الأمة ومصالحها الاساسية ، لا يوجد نموذج حضاري قوي وفعال •

إن قوة وفاعلية النظام السياسي شرط من شروط النهضة القومية ، ما دامت الأمة مجزأة وقسم من أراضيها محتلاً عسكرياً أو سكانياً، وثرواتها بيد الاجانب ، وبسبب ذلك تواجه حروباً وتحديات مصيرية . وبدون قوة النظام والصلاحيات الفعالة لقيادته يتهاوى النموذج ويصبح ضحية للميوعة والضعف! إلا ان قوة النظام لا تعني بأي شكل إنعدام الديمقراطية بل بالعكس، فان هذه القوة وتبني مبدأ مركزية صنع القرار يقصد بهما التصدي للحالات الاستثنائية بقرارات حاسمة وصارمة .

والتعددية ضمن النموذج لا يقصد بها الانفلات الليبرالي بل الحشد المنظم للقوى الوطنية والقومية الحزبية والنقابية وغيرها ، في اطار موقف وطني وقومي عام يرتكز على أساسيات متفق عليها ومعروفة ، وتدور ضمنه حوارات حرة وديمقراطية من أجل بلورة مواقف وطنية وقومية ودولية واشتراكية أكثر عمقاً وفاعلية ونجاحاً ، وليس العكس ، وهذه الخصيصة يوجد حولها خلاف بين المثقفين العرب ، إذ ان ثمة من يدعو لديمقراطية ليبرالية في دولة النموذج .

إن الربط بين المركزية والتعددية ضروري جداً لاغراء جماهير الأقطار الاخرى بالعمل والنضال من أجل الانضمام للدولة النموذج لأنه يضمن احترام الافكار والمناهج والايديولوجيات المختلفة في اطار الموقف القومي العام .

والخصيصة الرابعة هي عمل دولة النموذج ضمن اطار التزام قومي واضح وراسخ : فالدولة النموذج إن كانت تمثل كياناً قطرياً أو كيانين أو ثلاثة ، ليست سوى نموذج ينبغي أن يتوسع من خلال النجاح بضم أقطار أخرى ، حتى تصل ذروة هذه العملية بالتحاق كل الاقطار العربية واكتمال عملية الوحدة القومية للامة العربية .

وهذا يعني ان دولة النموذج تمثل في آن واحد جزءاً من الأمة تحرر وامتلك امكانيات النهوض والتقدم والعدالة ، لكنه جزء مطلوب منه أن يكون قابلاً للاندماج والتوحد مع أقطار أخرى وبالتالي فان عليه أن ينشىء آليات وصيغاً وأوضاعاً قابلة للتكييف أو لخدمة هدف التوسع القومي ، لا أن تكون دولة النموذج مجرد كيان منغلق أو يطمح للاكتفاء بالذات !

واستناداً الى هذا الفهم فان دولة النموذج ينبغي أن تكون مركز جذب قومي لكل جماهير الأمة العربية في الاقطار الاخرى ، من خلال منجزاتها ونجاحاتها وتجسيدها للفكر والاهداف والممارسات القومية . فبالانجازات وتجسيد الاهداف القومية والفكر القومي تقتنع الجماهير بأن دولة النموذج تمثل طموحاتها وتطلعاتها، وبالممارسات القومية ، أي باخضاع المصالح القطرية للمصلحة القومية العليا ، يتعمق ايمان الجماهير بأن دولة النموذج النهضوي هي دولتها البكر القابلة للتوسع .

وتجسيد دولة النموذج للافكار والاهداف القومية ينسف من الأساس أي توقف عند حالة الدولة القطرية المتقدمة واعتبارها نموذجاً نهائياً لما يجب أن تكون عليه كل دولة عربية على حدة . فالدولة القطرية المتقدمة حينما تتوقف في منتصف الطريق وترفض الاندماج القومي في اطار دستوري أوسع تقع في مأزق غموض الهوية وتداخل المؤثرات ، وبالتالي تفقد تدريجياً زخمها وبالأخص تتلاشى ملامح تقدمها وقوتها وتتحول الى مركز اجترار للأزمات الداخلية الطاحنة .

والخصيصة الخامسة هي الاستقلالية العامة لدولة النموذج ، التي يقصد بها التحرر من التبعية السياسية والفكرية والاقتصادية لأية قوة دولية والتمسك بذلك بصفته أساساً لتميز وبروز دولة عربية ذات دور ووزن محترمين وفعالين في المحيط الاقليمي وعلى صعيد دولي . وتقترن بهذه الصفة ضرورة عملية ، وهي ان دولة العرب النموذج ، ثم الكبرى ، ينبغي

أن تؤسس علاقات ثابتة وموضوعية مع جميع القوى الدولية والاقليمية على أسس المصالح المشتركة واحترام السيادة وتبادل المنافع ، فضلاً عن الأسس الفكرية والمبدئية إن وجدت مع بعض الاطراف •

ولهذا فان الخصيصة الخامسة تمثل حالتين مترابطتين: حالة الاستقلالية والتميز من جهة ، وحالة التفاعل والتعاون المتكافىء أو المضمون النتائج من ناحية ثانية •

والخصيصة السادسة مشتقة من الخصيصة الرابعة ، فكون دولة النموذج تمثل خطوة في طريق الوحدة العربية يعني الزامها بممارسات وأفكار قومية لا مفر منها ، أبرزها ان البناء ضمن النموذج ما هو إلا بداية وخطوة أساسية لن تكتمل فضائلها إلا بقيام الدولة العربية الكبرى ، ولهذا فهي ، أي دولة النموذج ، في حالة صيرورة وتقدم مستمرين ، في اطار استحالة تكامل أسسها وفضائلها في مرحلة الانتقال ، الأمر الذي يعني ان ثمة عيوباً بنيوية في دولة النموذج لا يمكن تخطيها إلا بقيام الوحدة الشاملة •

أما الفكرة الأخرى الحيوية فهي ان قدرات دولة النموذج في مختلف المجالات مسخرة لخدمة الاقطار العربية الاخرى • فثروة دولة النموذج يذهب جزء منها لدعم أقطار أخرى ، وقدراتها العسكرية تخدم هدف تعزيز الأمن الوطني لأي قطر يتعرض للتهديد من آجانب ، والخبرات العلمية ــ التكنولوجية ــ الثقافية تعرض لخدمة بقية الاقطار العربية •

وهكذا تبدو دولة النموذج ، حتى وهي في حالة انتقال ، عامل دعم واسناد وتعزيز للرابطة القومية وتأكيد لرسوخها •

المبحث الثاني : تجسيد النموذج

إن نظرة الى الواقع العربي الذي بدأ يتبلور بوضوح في منتصف الثمانينات ، تقود المرء حتماً الى اكتشاف ان ثمة دولة عربية محددة تجسدت فيها الخصائص المذكورة سابقاً ، فالعراق برز دولة قوية عسكرياً ، وتمتلك

قاعدة علمية ـ تكنولوجية متقدمة مكنته من تحقيق انجازات عسكرية كبرى فضلاً عن الانتصار التاريخي على ايران ، وفي مقدمتها الأنواع المختلفة من الاسلحة والاعتدة التي منعت عنه •

وفي العراق أيضاً تحققت الرفاهية والعدالة بصورة متزامنة في ظل الاشتراكية القومية ، فأصبح كل مواطن عراقي لأول مرة متحرراً من الجوع والأمية والقهر الطبقي والسياسي ، وقادراً على تفجير طاقاته الانسانية الخلاقة وتلك ظاهرة فريدة في العالم ، لأن الرفاهية كانت امتيازاً لطبقة أو فئة فقط في بعض البلدان •

وعلى صعيد النظام السياسي تميز العراق منذ ثورة ١٧ـ٣٠ تموز/١٩٦٨ بنزعة بارزة للتسامح والمرونة تجاه القوى السياسية التي عادته واضطهدته وتعاونت مع أجانب ضده ، فأغلق صفحات الماضي وأقام جبهة قومية ووطنية من جميع القوى السياسية ، ثم انسحب بعضها • ومع ذلك بقيت قيادة الثورة تطرح الصيغة تلو الصيغة لاجتذاب القوى السياسية الاخرى للعمل متحدين في اطار جبهوي عملي ، ولعل أبرز النماذج كانت نظام التعددية الحزبية وقانون حرية الصحافة ، وحل القضية الكردية سلمياً وديمقراطياً بصورة جذرية ••الخ•

وبهذه الاجراءات ربطت القيادة التأريخية بين قطبي أي نظام سياسي مستقر في العراق : المركزية والتعددية •

ولعل من أبرز خصائص النظام السياسي في العراق هي خصيصةالتزامه القومي الأصيل والمبدئي • فمنذ انبثاق الثورة كان واضحاً ان النموذج الذي سيقوم في العراق سيكون مجرد خطوة في طريق الوحدة العربية ، وان منجزات وقدرات دولة النموذج في العراق ينبغي أن تسخّر لخدمة بقية الاقطار العربية •

ومن ينظر الآن الى الممارسات الفعلية يلاحظ ان العراق قد تمسك بذلك وطبقه دون مساومة،وما حصل أثناء أم المعارك دليل أخير ونموذجيعلى

ذلك ، ففي ذروة التأزم ، أكد العراق حق العرب الفقراء في ثروات الاغنياء العرب ، وطبق وعده والتزامه بالربط بين كل القضايا القطرية بصفتها أجزاء تشكل القضية القومية الكبرى ، فضرب الكيان الصهيوني لأول مرة في تأريخه ضربة موجعة سايكولوجياً وستراتيجياً ، فضلاً عن آثارها السياسية الخطيرة •

ويدرك الأعداء ، قبل الأصدقاء ان ما تعرض له العراق من تحديات ومصاعب ومؤامرات ، كان نتيجة ايمان قيادته وشعبه بالقومية العربية وحتمية اقامة الوحدة العربية ، ولهذا لم تستغرق أكبر عملية استفتاء شعبي عربي عام من موريتانيا في الغرب وحتى عمان في الجنوب ، إلا بضعة أيام لكي يتوج العراق نموذجاً حقيقياً للنهضة العربية الحديثة ، والرئيس صدام حسين قائداً تاريخياً لهذه النهضة •

والآن لا يحتاج المواطن البسيط في كل الاقطار العربية لطروحات المثقفين لاقناعه بأن العراق قد مثل نموذج النهضة الحديثة العملي ، فلقد رأى هذا المواطن قيادة العراق تسخر الاموال لبناء دولة نموذجية مرفهة تسود فيها العدالة والعلم ، ورأى أيضاً ان هذه الدولة قد خاضت أشرس الحروب والمعارك وقدمت أغلى التضحيات البشرية والمادية من أجل المبادىء القومية وشرف السيادة وتحرير فلسطين ، وعبرت عن أرقى أشكال الشجاعة والذكاء واحترام الذات في أثناء الحرب المصيرية ، ثم انتقلت الى تقديم نماذج مشرفة لكل انسان في مرحلة البناء والاعمار والصمود بوجه الحصار !

نعم ، ما حصل في العراق لم يكن مجرد إلقاء دروس نظرية جميلة دون تنفيذ أو فعل ، بل كان سلسلة أفعال ابداعية كبرى تجاوزت الكلمات والدروس النظرية وهزت العالم برمته ، فكان طبيعياً أن يكتشف الانسان البسيط ان عراق صدام حسين يمثل نموذجاً أصيلاً للنهضة القومية حلم به وتطلع اليه كل عربي شريف لما يزيد على القرن !

ولعلنا لا نبالغ حينما نشير الى ان قادة ومفكري الاعداء أكثر موضوعية من بعض المثقفين العرب ، فالاعداء اعترفوا رسمياً بولادة نموذج النهضة القومية في العراق ، وما قاله جيمس بيكر أثناء لقاء جنيف مع السيد طارق عزيز في الأيام السابقة للعدوان الثلاثيني ، من ان اميركا ستعيد العراق الى عصر ما قبل الصناعة ، اعتراف رسمي بحقيقة ان العراق قد توغل بعيداً في عصر الصناعة الحديثة ، أو انه تجاوز « الخطوط الحمر » التي وضعها الغرب لتقدم دول العالم ، وخصوصاً العرب •

ثم جاءت الاهداف التي اختارتها اميركا في العراق لتقدم أدلة أخرى على ان الدافع الحقيقي لضرب العراق كان محاولة تدمير دولة النموذج النهضوي القومي الحقيقي والمجسد في الواقع ، حيث ان الاهداف كانت المعامل والطرق والجسور ومراكز البحث العلمي ـ التكنولوجي ومحطات الطاقة والمياه ••الخ•

وبعد كل ما حصل لا يوجد ذكي واحد في العالم لم يدرك بأن العدوان كان في حقيقته محاولة غربية شاملة لتحطيم أول نموذج قام في الواقع وتقدم مادياً وفكرياً للنهضة العربية الحديثة • كذلك لا يوجد عاقل واحد يجهل حقيقة ان الغرب والصهيونية قد حشدا كل طاقاتهما للتخلص من مهندس وقائد دولة النموذج الرئيس صدام حسين •

الفصل الثاني

أسباب وجذور العداء

المبحث الاول : جذور العداء

إن مسألة معاداة الغرب والصهيونية لمشروع النهضة العربية الحديثة

ليست غامضة أو سرية ، بل هي ثمرة قرارات ستراتيجية اعتمدها الغرب والصهيونية وتقضي بمنع العرب من تحقيق وحدتهم وتقدمهم ، على اعتبار ان ذلك سيقود الى ولادة قوة عربية فعالة تضع حداً لسياسة استغلال ونهب ثروات العرب واقتطاع أجزاء من أراضيهم •

في عام ١٩٠٧ قام رئيس وزراء بريطانيا السير هنري كامبل بنرمان بتشكيل ما أطلق عليها اسم «لجنة الاستعمار» من أجل المحافظة على الهيمنة البريطانية على العالم ، وضمت نخبة من أساتذة الجامعات وأعلام السياسة في الدول الاستعمارية مثل فرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وايطاليا واسبانيا وبريطانيا •

وقد جاء في تقرير « لجنة الاستعمار » عن الوطن العربي ما يأتي: « إن الخطر يكمن في هذه المنطقة بالذات وبصورة خاصة في تحررها وتثقيف شعوبها وتطويرها وتوحيد اتجاهاتها ، لذلك فعلى الدول ذات المصلحة أن تعمل على استمرار تأخرها وتجزئتها وابقاء شعوبها مفككة جاهلة متناحرة • وعلينا محاربة اتحاد هذه الشعوب وارتباطها بأي نوع من أنواع الارتباط الفكري والروحي والتأريخي ، وايجاد الوسائل العملية القوية لفصلها بعضها عن بعض ، وكوسيلة أساسية مستعجلة لدرء الخطر توصي اللجنة بضرورة العمل على فصل الجزء الافريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي ، ونقترح لذلك اقامة حاجز بشري قوي وغريب ، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار عدوة لسكان المنطقة »[1] •

إن هذه التوصية والمقترح يكشف بوضوح تام الهدف الحقيقي الأساسي للسياسات الغربية في الوطن العربي ، فالغرب يقف رسمياً وبقوة ضد الوحدة العربية وضد التقدم العلمي ـ التكنولوجي العربي ، وضد

التعليم والتحضر وضد التمسك بأي اطار فكري ! ولذلك يجب ايجاد وسيلة لمنع العرب من تحقيق أي من هذه الاهداف ، عن طريق زرع جسم غريب بين شطري الوطن العربي !

إن هذه التوصية ليست بحاجة لشرح أو توضيح ، خصوصاً انها تحولت الى أساس ثابت في سياسات الغرب تجاه العرب ، وتفذت بحذافيرها. فبعد عشر سنوات من قرار « لجنة الاستعمار » كشف عن مؤامرة تقسيم الوطن العربي ، التي عرفت باسم مشروع (سايكس ــ پيكو) ، ثم صدر (وعد بلفور) ، وتوالت عملية تنفيذ تقرير لجنة الاستعمار ، فقامت بريطانيا بتهيئة الاجواء لاحتلال فلسطين من قبل الصهاينة ، وليكون الكيان الصهيوني هو الحاجز البشري المعادي الذي يمنع وحدة العرب وتقدمهم .

وفضلاً عن مشاريع التجزئة الاستعمارية للوطن العربي ومعاداة تقدمه ونهضته ، فان الصهيونية وكيانها في فلسطين قد تبنيا مخططات خاصة بهما ليس فقط للمحافظة على واقع التجزئة والتخلف في الوطن العربي ومنع تغييره نحو الأفضل ، بل لزيادة وتعميق واقع التجزئة العربية من خلال افتعال أو إثارة أزمات وصراعات طائفية ــ عنصرية داخل أقطار الوطن العربي ، أو بين الاقطار العربية والجيران غير العرب .

والهدف الصهيوني البعيد واضح : بمساعدة التناحر العربي والتجزئة العربية يستطيع الكيان الصهيوني تنفيذ برامجه التوسعية على حساب العرب وأرضهم وثرواتهم[٢] .

وهكذا يتضح ان الاستعمار الغربي (بريطانيا وفرنسا ثم الولايات المتحدة الاميركية) والصهيونية قد تبنيا مواقف أساسية ثابتة تجاه العرب تقوم على إبقاء التجزئة والتخلف ومنع الوحدة العربية والتقدم والرفاه ، بطرق مختلفة تتحدد حسب الظروف ، إلا ان أبرزها هو محاربة تجارب النهوض والقضاء عليها وإثارة الصراعات الطائفية ــ العنصرية والسياسية

بين العرب ، وافتعال الأزمات بين العرب وجيرانهم وتعرضهم لهزات وهزائم عسكرية وسياسية ..الخ.

المبحث الثاني ١- النفط

ولعل السؤال حول أسباب هذا العداء الغربي ـ الصهيوني للعرب مكرر ومطروح ومفهوم الاجابة ، ولهذا سنختصر الجواب بصيغة التذكير فقط ببواعث العداء لكي تكتمل صورة الموقف المعادي بمختلف عناصره. إن أول وأهم سبب حديث لمعاداة الغرب للأمة العربية هو وجود أكبر مخزون نفطي فيها . إذ ان ثلثي حاجة الغرب للنفط تقريباً توفرها منطقة الخليج العربي ، وبما ان النفط مادة حيوية للحياة والصناعة في الغرب فان الاستيلاء عليه وعلى خطوط نقله وضمان ذلك أصبح أهم أهداف الدول الغربية منذ مطلع هذا القرن[٣] .

وزادت قيمة الوطن العربي الجيوبولتيكية بالنسبة للغرب والشرق حينما قامت ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ في روسيا وتأسس الاتحاد السوفيتي كمركز للشيوعية العالمية أخذ يهدد الغرب الرأسمالي مباشرة . وبما ان الخليج العربي يقع جنوب الاتحاد السوفيتي فان استيلاء الاتحاد السوفيتي على منابع النفط قد عُدّ تهديداً خطيراً للعالم الصناعي الرأسمالي فاشتد الصراع على الخليج وحوله ومن أجل مقترباته[٤] .

وفي السبعينات تطورت قيمة النفط فلم يعد (مصلحة اقتصادية) (Economic Inters.) بل أصبح مادة ستراتيجية تدخل ضمن العناصر المكونة للأمن القومي الاميركي ، كما وضح ذلك « مبدأ كارتر »[٥] الذي تم تبنيه رسمياً عام ١٩٨١ . وزاد تداخل منطقة الخليج مع المصالح الستراتيجية الاميركية والغربية من خلال تحول الخليج الى واحد من أهم الاسواق الاستهلاكية للسلع الغربية ، فضلاً عن استثمار أموالها في بنوك اميركا والتي بلغت (٦٧٠) مليار دولار في عام ١٩٩١[٦] .

إذن ، وحتى نهاية الثمانينات ، كانت اميركا والغرب ينظران للوطن العربي من زاوية النفط بالدرجة الاولى ، على اعتبار انه عماد الحياة العصرية والصناعية ، لذلك فحماية مصادر النفط أحد أهم شروط رفاهية وأمن الغرب ، وهو ما يتطلب سحب مصادر القوة العربية بمنع العرب من الوحدة أو تحقيق النهضة والتقدم •

٢ـ تبدلات ستراتيجية جذرية

ولكن ، وبانهيار الشيوعية في اوربا الشرقية في نهاية عام ١٩٨٩ ، وانهيار الاتحاد السوفيتي في نهاية عام ١٩٩١ ، حصل تبدل دولي كانت له آثار اقليمية على العرب سلبية جداً • فزوال الخطر الشيوعي واقترانه بتزايد تقدم اليابان وقرب الوحدة الاوربية وتراجع مكانة اميركا التجارية والاقتصادية ، قد دفع الولايات المتحدة لتغيير أولوياتها الستراتيجية •

فبدلاً من اعتبار الخطر السوفيتي على منابع النفط هو التحدي الأول، حسب (مبدأ كارتر) ، فان زوال هذا الخطر قد وضع الخطرين الياباني والاوربي الغربي في المقام الاول(٧) • فاذا واصلت اليابان وأوربا تقدمهما التجاري ـ التكنولوجي ، فسوف تتفوقان على الولايات المتحدة وتملكان الأساس المادي للقيام بدور دولي أساسي ومستقل عن النفوذ الاميركي ! فهل تسمح واشنطن بذلك ؟

لقد تبنت الولايات المتحدة الاميركية خطة عالمية جديدة أساسها احكام قبضتها على منابع النفط العربية والانفراد بذلك ، لضمان امتلاك سلاح سياسي ـ اقتصادي فعال جداً ، هو النفط ، واستخدامه بفعالية خطيرة لكبح عملية تقدم اليابان واوربا الغربية والسيطرة الدائمة عليهما ومنعهما من التفوق عليها ، كما قال شوفنمان وزير الدفاع الفرنسي السابق(٨) •

وهذه الخطة تتضمن ادراكاً عميقاً لحقيقة ان مطلع القرن القادم سيشهد نضوب احتياطيات النفط العالمية وخروج كل الدول المصدرة للنفط

من ساحة تجارته وبقاء ثلاث مناطق فقط تزود العالم به لمدة قرن في الاقل وهي السعودية والعراق والكويت[٩] • وهذه الحقيقة تعني ان مصير العالم الصناعي يتوقف على منطقة الخليج العربي ، وبالتالي فان من يسيطر على « حنفية النفط » سيسيطر على العالم ، كما قال جيمس شليسنجر وزير الدفاع الاميركي السابق[١٠] •

وكجزء من شروط نجاح خطة اميركا هذه للسيطرة على العالم عبر السيطرة الدائمة والآمنة على منابع النفط ، كان ضرورياً القضاء على أي تهديد اقليمي لها ، سواء برز بصيغة سياسة نفطية مستقلة ، أو بصورة دولة قوية لا تسمح باستيلاء أجانب على أراضيها وأراضي الوطن العربي،والعراق تجسدت فيه تلك الصيغة وهذه الصورة • فهو بلد نفطي يتبع سياسة نفطية مستقلة ، كما انه دولة تحرص على استقلال الوطن العربي وتحرر أراضيه ، فكان طبيعياً أن ترى اميركا في العراق عقبة كأداء لا بد من ازالتها بالقوة والتخلص من مقاومتها لمخطط اميركا العالمي من منطلق قومي ووطني •

ولكي لا يكون هدف إزالة « العقبة العراقية » مجرد عمل عسكري محدود يتركز على منع العراق من الاستيلاء الاميركي التام على منابع النفط ، بل التوسع في العملية وتدمير أصل قوة العراق الذي مكنه من تجاوز الخطوط الحمر والخروج من دائرة التخلف والتمزق التي رسمتها الدوائر الغربية ، جاء العدوان الثلاثيني بصفته عملية منظمة ومدروسة لتدمير عناصر القوة والتقدم في أول تجربة نهضوية عربية ، وليس فقط ضرب الاهداف العسكرية •

ولعل ما قاله جيمس بيكر ، وزير الخارجية الاميركي ، أثناء لقائه بالوفد العراقي في جنيف قبل العدوان من ان اميركا ستعيد العراق الى عصر ما قبل الصناعة[١١] ، كان تعبيراً دقيقاً عن النظرة الحقيقية والموقف الفعلي الثابت للغرب تجاه العرب ، والذي جسده تقرير « لجنة الاستعمار » ، فما قاله بيكر ليس سوى تنفيذ لتوصية تقرير « لجنة الاستعمار » الخاصة بمنع العرب من تحقيق أي تقدم علمي وتعليمي واجتماعي وسياسي وابقائهم

متخلفين ضمن ظروف عصر ما قبل الصناعة •

إذن : الغرب ، في عدائه المزمن للعراق ، كان يريد القضاء على السياسة النفطية المستقلة للعراق القائمة على تسخير النفط لخدمة قضايا التنمية والرفاهية والتقدم في الوطن ، وهذا هو أحد الأركان الأساسية في السياسة المعادية للعراق •

المبحث الثالث : مستقبل اسرائيل والتوازنات الاقليمية

لقد قام الكيان الصهيوني على عدة فرضيات جوهرية ، أبرزها انه مخفر أمامي لضرب نهوض العرب ووحدتهم والدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة ، وانه لذلك مركز متقدم علمياً وتكنولوجياً وسط محيط ريفي عربي متخلف • وبما انه كيان مصطنع مفروض من الخارج ومكلف بمهام ستراتيجية أبرزها قمع حركة التحرر والوحدة العربية من جهة ومحاربة ما كان يسمى بـ « النفوذ السوفيتي » من جهة ثانية ، فان موارد فلسطين الاصلية لا تكفي لبناء قوة أمامية بهذا الحجم •

ما العمل لتمكين الكيان الصهيوني من التفوق على العرب مجتمعين ؟ الجواب كان ان ثمة حلاً مرحلياً وحلاً دائماً ، والحل المرحلي هو تزويد الكيان الصهيوني بالمهاجرين لتأمين عنصر السكان ، وبالأموال لتأمين مصادر دخل تغطي تكاليف بناء قوة اقليمية وسد النقص في الموارد ، وهو نقص فادح ، وضمان أمنه ومستقبله عبر الحماية الغربية • وبطبيعة الحال تولت الولايات المتحدة والصهيونية العالمية تأمين هذه المستلزمات المادية والسياسية •

أما الحل الدائم فكان تطور وتوسع الكيان الصهيوني بحيث يتحول الى قوة اقليمية مسيطرة على موارد أساسية وتملك قدرات علمية تكنولوجية تؤهلها للتحول الى مركز جذب علمي ـ تكنولوجي ـ تجاري لكل الاقليم،

على أن يحيط به ريف عربي متخلف تكنولوجياً ، ويزود المركز الصهيوني برأس المال والطاقة واليد العاملة الرخيصة ويؤمن له الاسواق لتصريف سلعه ، وبذلك يكف هذا الكيان عن الاعتماد الطفيلي على الدعم المالي والعسكري الاميركي الصهيوني ويتحول الى الاعتماد على موارده وموارد الاقليم الذي كان مفروضاً أن يتحول الى مجرد هامش ريفي محيطي طفيلي تكنولوجياً وعلمياً •

وهذا هو بالضبط جوهر المشروع الصهيوني الذي أطلق عليه السيد ياسر عرفات في مطلع السبعينات اسم (مشروع عام ٢٠٠٠)[١٢] ، وهو ، كما يتضح ، يقوم على تمكين الكيان الصهيوني من تحقيق تفوق علمي ــ تكنولوجي على العرب ومنع العرب من ذلك بأية طريقة ، ثم فرض السلام على العرب واجبارهم على التعايش الذيلي مع الكيان الصهيوني وهم يمثلون كتلاً متنافرة متخلفة ، تماماً كما ورد في توصية « لجنة الاستعمار » •

والسؤال المنطقي الذي لا بد ان يثار هو الآتي : هل هذا يعني ان الغرب والصهيونية سيقاومان ويحطمان أية محاولة عربية لتحقيق النهضة القومية والعلمية بصورة مباشرة وصريحة ؟ والجواب كان كالآتي : لئن كانت الصهيونية لا تخفي عدائها لأي مشروع نهضوي عربي ، فان مصالح الغرب كانت تلزم حكوماته بتبني سياسات علنية ليس فيها ما يؤكد رسمياً هذا العداء • لذلك اعتمد الغرب على اسرائيل ودول أخرى ، من بينها ايران ، في مواصلة وممارسة سياسة العداء للعرب بالنيابة •

وكانت هذه السياسة متبعة في عهد المرحوم جمال عبدالناصر وأثناء نضال دولة البعث في العراق حتى عام ١٩٨٨ ، حيث كانت أميركا ، وغيرها ، لا تظهر في الواجهة كعدو رسمي ، إلا ان النتيجة التي آلت اليها حرب الخليج الاولى ، وهي انتصار العراق الساحق على ايران وتحوله الى قوة اقليمية تخطت الحدود الحمر التي رسمت لأية قوة عربية ، قد أحدث ما

يسمى في علم الذرة بـ « التفاعل المتسلسل » Chain Reaction أدى الى تحييد أهم قوتين وكيلتين في المنطقة وهما اسرائيل وايران ، فدخلت اميركا هذه المرة ، ولأول مرة ، الصراع مباشرة ضد قطر عربي •

كيف تم ذلك ؟ ولماذا ؟

أولاً : كانت بريطانيا قد أقامت في الخليج العربي توازناً للقوى الاقليمية كلفت ايران من خلاله بدور الشرطي الاقليمي الذي يقمع تطلعات عرب الخليج ، وبالذات العراق ، من خلال التفوق الايراني السكاني ـ العسكري ـ المالي ، ويستنزف مواردهم ويمنع وحدتهم • ثم دعمت أميركا هذا التوازن حينما حلت محل بريطانيا ، بل ان القوة الايرانية وصلت ذروتها وذروة تحديها للعرب في السبعينات •

ثانياً : كانت اسرائيل القوة المتفوقة في توازن قوى اقليمي ثانٍ ومكمل أقيم حول منطقة الصراع العربي ـ الصهيوني ، وكانت وظيفته ردع الدول العربية الاخرى وامتصاص طاقاتها ومنعها من الوحدة والتقدم، وقد تم ذلك تحت شعار « حتمية تفوق اسرائيل على كل الدول العربية عسكرياً وبشكل ساحق » •

هذان التوازنان الاقليميان سادا حتى النصف الاول من الثمانينات وكانا أساس التوازن الستراتيجي الاقليمي الذي أراده الغرب ، لحماية مصالحه ومنع النهضة العربية من خلال ابقاء العرب ضعفاء ممزقين ومتخلفين وطفيليين •

ولكن انتصار العراق على ايران رسمياً وبشكل ارتبط بتدمير القسم الرئيس من البناء التحتي لايران ، بما في ذلك القوة الضاربة في قواتها المسلحة ، أسقط أحد التوازنين الاقليميين للغرب ، فبرز العراق وليس ايران قوة اقليمية متفوقة ومقررة في الخليج العربي ، حيث « حنفية النفط » و « دم الحياة » بالنسبة للغرب !

وانتصار العراق كان النتيجة الستراتيجية المناقضة تماماً لما أراده الغرب من حرب الخليج الأولى ، إذ طرح سيناريوهان لتلك النهاية : الاول الاستنزاف التام للعراق وبصورة تجعله عملياً منطوياً على ذاته لعقدين من الزمن ، أي تحييده سياسياً • والسيناريو الثاني تقسيم العراق الى ثلاث دول • وقد مالت اميركا الى السيناريو الاول في بداية الحرب ثم الى الثاني في سنواتها الثلاث الأخيرة ، وتجسد ذلك في مخطط (ايرانجيت) •

ومع هذا انتصر العراق ولم يخرج مستنزفاً ، بل بالعكس خرج بقوة عسكرية ضاربة لم يكن يملكها من قبل ، كما استوعب خبرات وتجارب عسكرية وسياسية وتكنولوجية مكنته من امتلاك أفضل جيش في الشرق الأوسط •

وبدأ التفاعل المتسلسل : فانهيار القوة الايرانية أفقد التوازن الآخر جناحه الشرقي ، لأنهما كانا مكملين لبعضهما ويقوم كل منهما بوظيفته بالتنسيق مع الآخر ، لذلك فان انهيار ايران قد خلخل توازن القوى الآخر ، وقد عبرت اسرائيل عن ذلك باعرابها عن الشعور الشديد بخطر العراق الجديد على مستقبلها ، وشاركتها اميركا والغرب كله هذه المشاعر،خصوصاً حينما كان يرد ذكر الصواريخ العراقية ، لأن هذه الصواريخ وهي تقصف طهران ، كانت اشارة واضحة لامكانية أن تطلق يوماً ما على تل أبيب ، ما دامت المسافة متقاربة •

وبدأ التفاعل يزداد سرعة حينما هددت اسرائيل بقصف المنشآت العراقية الحيوية للتخلص من العراق الجديد ، فجاء الرد العراقي الحاسم :

إذا ضربتنا اسرائيل باسلحة غير تقليدية فسنحرق نصفها بالكيمياوي المزدوج !

وهكذا أدرك الستراتيجيون في العالم ان امتلاك العراق للسلاح الكيمياوي المزدوج وجيش عملاق هائل الفعالية قد حيّد القوة الاسرائيلية المتفوقة في اطار ما يمكن تسميته (بتوازن رعب اقليمي) بين العراق

واسـرائيل •

لقد أدى تجاوز العراق (للخطوط الحمر) الى الغاء أهم توازنين في الشرق الاوسط ، ونشأ توازن قوى لأول مرة في تأريخ المنطقـة الحديث لصالح العرب • لكن المسألة الاخطر في كل هذا لم تكن التقدم العسكري العراقي ، إذ انه مثل الجزء الطافي من جبل الجليد الغاطس ، فقـوة العراق العسكرية التقليدية وغير التقليدية لم تكن ثمرة عملية استيراد شاملة ، بل كانت مزيجاً خلاقاً من استيراد بعض المعدات وتطوير وتكييف وابتـداع غيرهـا •

ففي مطلع السـبعينات ، اعتمد العـراق على اسـتيراد الاسـلحة والتكنولوجيا على نطاق واسع ، لكنه ابتدأ بما يسمى «بالهندسة العكسية» أي تقليد الاجهزة المستوردة ، لينتهي بامتلاك خبرات تكنولوجية خاصـة مكنته من تصنيع أجهزة ومعدات واسلحة عديدة دون استعانة بأية خبـرة خارجية • لقد نشأت أجيال كاملة من آلاف العلماء والمهندسين والفنيين الذين توزعوا في كل المجالات • وبذلك يكون العراق قد امتلك الأساس العلمي ــ التكنولوجي الذاتي لبناء القوة الذاتية الفعالة • وهذا بالضبط هو سر تفوق وتقدم العراق وليس عملية الاستيراد الابتدائية •

وهذه الحقيقة لا تعني اسقاط أهم توازنين في الشرق الأوسط فحسب بل هي تعني تدمير أساس (مشروع عام ٢٠٠٠) الصهيوني • إذ ان الفرضية الأساسية التي قام عليها ، وهي انفراده بدور المركز العلمي ــ التكنولوجي المحاط بريف عربي متخلف ، قد سقطت ببروز العراق كمركز اقليمي متقدم في مجال التكنولوجيا والعلم ! وزادت خطورة التحدي العراقي للمشـروع الصهيوني هذا حينما تذكّر الجميع ان العراق مؤهل طبيعياً ليكون المركز الاقليمي العلمي ــ التكنولوجي الاسـاسي في الشرق الاوسط ، بالنظـر لامتلاكه أراضي كبيرة صالحة للزراعة ومياهاً ونفطاً ومعادن أخرى ونسيجاً اجتماعياً حضرياً ضرورياً ، بعكس الكيان الصهيوني الذي اعتمد في تفوقـه

على الدعم الخارجي •

المبحث الرابع : قرار العدوان

كيف نظرت أميركا والصهيونية لهذه التفاعلات المتسلسلة التي خلقت كيمياء جديدة تماماً في الشرق الاوسط ؟

أولاً : لقد أدركت اميركا ان وجودها ومصالحها في الخليج العربي قد انكشفا لأول مرة وأصبحا بمواجهة عملاق اقليمي له برنامج واضح يتمسك به ويصطدم في أجزاء أساسية منه مع البرنامج الاميركي • وهو تطور كانت أميركا تبذل المستحيل لمنع بروزه ، فهي لا تريد طرفاً يضغط عليها ويهدد مصالحها غير المشروعة •

ثانياً : أدركت اميركا ان تكنولوجيا الصواريخ المتوسطة المدى والباليستية (ذاتية الدفع) التي امتلكها وصنعها العراق قد قلبت التوازن الستراتيجي الاقليمي وتهدد بافشال التوازن الدولي الذي أقامته اميركا في اطار الاتفاقية الدولية للحد من انتشار الصواريخ الباليستية •

ثالثاً : وأدركت اميركا ان العراق الجديد ورغم عدم وجود برامج عدائية أصيلة لديه تجاه أميركا ، إلا ان نزعته الاستقلالية والقومية ستقود الشرق الاوسط الى حالة جديدة محورها الالتفاف حول نموذج النهضة القومية في العراق واعتباره مقدمة عملية للوحدة العربية ، وهذا التوجه مناقض لتوصية « لجنة الاستعمار » ولكل الستراتيجيات المعروفة للغرب التي قامت على أساس تدمير أي مشروع للنهضة والوحدة القومية لدى العرب •

رابعاً : وأدركت اميركا ، ومعها الصهيونية وكيانها ، ان بقاء العراق القوي والمتقدم سوف يقود تلقائياً الى نسف المشروع الصهيوني الاصلي ، لأن امتلاك العرب للعلم والتكنولوجيا واتجاههم نحو الوحدة وتجاوز

الدولة القطرية المتقدمة ، يعني عملياً الغاء مبررات وجود اسرائيل المستقبلية وعودة اسرائيل الى سياسة الاعتماد على الدعم المالي والعسكري الكبير الاميركي ـ الصهيوني ، وهو اعتماد مستحيل في الظروف الجديدة !

خامساً : أدركت اميركا ومعها ايران وتركيا ان العراق القوي المتقدم نحو صنع الغد العربي الوحدوي المشرق ، يعني تضاؤل الدورين الايراني والتركي وعودة هذين البلدين الى حجمهما الطبيعي أمام قوة عربية مقتدرة اقتصادياً وتكنولوجياً وعسكرياً ، وبذلك تخنق المشاريع التوسعية الفارسية ـ التركية داخل الوطن العربي الى الابد •

سادساً : وأدركت اميركا ان العراق القوي الناهض سوف يضع حداً لتبعية بعض العرب للقوى الاجنبية ويؤمن استغلال ثرواتهم لصالح الشعب العربي ويعيد للأمة هويتها الحضارية ويفسح المجال لازدهار العبقريةالعربية مرة أخرى في التاريخ لتسهم بصنعه مجدداً ، كما دشن أجدادنا السومريون والبابليون والفراعنة والفينيقيون بناء الحضارات الاولى للبشرية •

سابعاً : وأخيراً أدركت اميركا ان بقاء العراق القوي والمستقل سيكون التحدي الاول لخطتها العالمية للسيطرة على منابع النفط بصورة دائمةوآمنة كمقدمة لخنق وتركيع أوربا واليابان وبناء نظام دولي جديد تتزعمه هي دون منازع •

في اطار هذه الحقائق والافكار والتطورات تم العدوان الثلاثيني ،وفي ضوء كل ما سبق ذكره نستطيع أن ندرك أسباب همجية العدوان وتركيزه على تحطيم المنشآت العلمية ـ التكنولوجية ومظاهر الحضارة والتقدم والخدمات • لقد أرادت أميركا ، وكما جاهر بذلك وزير خارجيتها آنذاك جيمس بيكر ، أن تعيد العراق الى عصر ما قبل العصر الصناعي ، وبذلك تقضي على أحلام وآمال العرب مجدداً •

هل تحطـم النمـوذج ؟

لقد اتضح لنا بصورة دقيقة ان المصادر الاساسية لقوة وبروز نموذج النهضة القومية في العراق لا زالت موجودة ولم تدمر أو يطالها العـدوان ، وان ما نجح في تحطيمه كان تحطيم رموز مادية لهذه النهضة بناهـا العقـل الذي وضع أسسها وطورها ، بعكس ما تروج له جهات مشبوهة تحاول بث اليأس وروح التراجع ٠

إن ثمة حقائق قوية وراسخة لا يمكن انكارها تؤكد ان تجربة النهضة القومية في العراق لا زالت حيـة وقادرة على اعادة بناء ما دمر في مختلـف المجالات خلال زمن استثنائي في قصره ٠ وأبرزها حقيقتين : الحقيقة الاولى هي ان نموذج النهضة القومية لم يكن أساساً ثمرة ثراء مـادي مكّـن من استيراد الآلات والاجهزة التي دمرت ، بل هو ، بتحديد دقيق ، ثمرة العقل العراقي السياسي (الحزب وقائد الحزب) والعلمي (الكوادر الهندسـية والعلميـة) ٠

فلولا دور الحزب القيادي ورسوخه في المجتمع ونجاحه في بناء دولة عصرية متقدمة هندسها القائد صدام حسين لما بُني العراق القوي والمتقـدم ولما حقق التقدم الهائل المعروف ، ولهذا فان الاصل في الابداع العـراقي للنموذج النهضوي هو وجود العقل والأداة السياسية ، وهما لا زالا على رأس السلطة وبثبات أشد من السابق ٠

أما الجانب الآخر فهو ان ذلك الوعـي السياسي قد وفر الامكـانية الفعلية لتخريج آلاف العلماء والمهندسين والعمال والفنيين في مختلف الحقول،

الذين هضموا التكنولوجيا المستوردة ثم أبدعوا فيها وأضافوا اليها ، فكانت إبداعات العراق الأساسية هي قدرة علمائه على الابداع والابتكار والتطوير والتكييف في زمن المقاطعة والحصار •

واستناداً الى ذلك نقول بأن العقل السياسي الذي صنع النموذج وهيأ مستلزماته وأشرف على بنائه لا زال موجوداً ، وبخبرة أعمق وتصميم أشد• كما ان آلاف العلماء الذين نفذوا المشروع ومنحوه صفاته الاختصاصية المتطورة ، لا زالوا موجودين وقد عمقوا خبراتهم وقدراتهم الابداعية ، الأمر الذي يعني ان الخراب الذي أصاب الجانبُ المادي للمشروع النهضوي لا يعتبر تدميراً له ، بل خسارة كبيرة يمكن تعويضها بأحسن منها،وبالتأكيد، في زمن استثنائي سيدهش العالم بقوة •

بتعبير آخر : ان مشروع النهضة القومية قد تعرض لتحدٍّ خطير مكّن بناته السياسيين والفنيين من استيعاب دروس جديدة جعلتهم أكثر قدرة على اعمار النموذج وتكييفه ليكون أكثر قوة وأصالة وانسجاماً مع ظروف العالم الجديد •

أما الحقيقة الثانية التي يتجاهلها منطق التيئيس فهي ان النفوذ الاميركي المرجح الآن في العالم ما هو إلا نفوذ مؤقت امتلكته اميركا بسبب انهيار النظام الدولي الذي قام عقب الحرب العالمية الثانية ، دون بروز نظام دولي جديد في الواقع ، مما خلق ظرفاً أو حالة جديدة انتقالية في تأريخ البشرية، لا بد أن تنتهي في زمن منظور وينشأ نظام دولي جديد متعدد المراكز والقوى ، لا تكون اميركا فيه سوى طرف رئيس ولكن ليس الطرف المسيطر •

إن نظرة سريعة لعالم اليوم وبعد سنتين من العدوان على العراق، تؤكد ان نفوذ اميركا قد بدأ ينحسر ويتراجع ، فها هي اميركا من الداخل تسقط

بوش لأنه أقدم على تغليب السياسة الخارجية على السياسة الداخلية ، على اعتبار ان قدرات اميركا محدودة وعليها معالجة أمراضها الداخلية قبل

التورط في أزمات خارجية ، وها هي أوربا الشرقية تنهض مجدداً بصيغة حركات شعبية تسيطر على الشارع لتقف ضد سياسات اميركا وتعزل الرموز التي نصبتها اميركا هناك ، وها هي أوربا الغربية واليابان تقعان تحت شعور أعمق بخطر توجهات اميركا الاستعمارية •

أما نحن العرب ، فبعد سنتين من الصمود العراقي المذهل ، تساقطت « أعمدة » الدعاية المضادة للعراق في قلعتها : (مصر) ولاذ مثقفو الدولار النفطي خلف جدران الصمت أو التودد مجدداً للعراق ، وأدرك حكام الخليج المأزق الستراتيجي الذي يواجه اميركا عالمياً واقليمياً وشرعوابتهريب « شرفهم ووطنهم » الى الخارج ، أي تهريب أموالهم •

مقابل ذلك تعزز الموقف الوطني العربي المساند للعراق ، وزادت قناعة الناس العاديين وأغلبية المثقفين الوطنيين والقوميين ، بأن نموذج النهضة القومية الذي برز في العراق لا زال موجوداً رغم جراحه ، وان هذه الجراح ستكون عامل تحفيز للحصانة الشاملة ، وهكذا فان نموذج النهضة القومية الموجود في العراق يكون قد تجاوز مرحلة الخطر المميت وأصبح يواجه مرحلة ستكون هي بالذات عامل شحذ للهمم وترسيخ للاصرار على مواصلة مسيرة النضال من أجل الوحدة العربية الشاملة والاشتراكية بصفتها الخيار العملي الوحيد للعرب وللانسانية في عصر الهمجية الرأسمالية •

١ـ محمد عباس : الوجه الآخر ، ص١٢٢ ، نقلا عن محاضرة السيد صخر أبو نزار المعنونة «النظام العالمي الجديد وتحديات الامن القومي العربي» التي ألقيت في الندوة الفكرية الثالثة لمكتب الثقافة والاعلام (١٩٩٢) .
٢ـ انظر : عوديد يينون : ستراتيجية لاسرائيل في الثمانينات ، مجلة (كيفونيم) الصهيونية عدد رقم (١٤) ، شباط/فبراير/١٩٨٢ ص‌ص٤٩ـ

٦١ نقلا عن ملف « تطور العقيدة العسكرية الاسرائيلية خلال ٣٥ عاماً »، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٨٣ ·

٣ـ د· نادية المختار : تطور ستراتيجية الولايات المتحدة في الخليج ومفهومها للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، محاضرات مادة الخليج العربي ، كلية العلوم السياسية/جامعة بغداد ١٩٩١ ·

٤ـ المصدر المذكور سابقاً ·

٥ـ الاستاذ عدي صدام حسين : النفط والطاقة ، بحث مقدم الى كلية الدفاع الوطني ، جامعة البكر ·

٦ـ صحيفة القادسية ١٩٩٢/٣/٢٧

٧ـ انظر : صلاح المختار : كيف تنظر اوربا واليابان الى محاولات اميركا الانفراد بالسيطرة على العالم ؟ مجلة « آفاق عربية » مايس ١٩٩٢ .

٨ـ صحيفة الجمهورية ١٩٩٢/١/٣٠ ·

٩ـ عرب بلا نفط : مجموعة أبحاث ، اصدار مؤسسة الابحاث العربية،لندن، ١٩٨٦ ، ص٢٥ ·

١٠ـ د· نادية المختار ، المصدر السابق ·

وللمزيد من التفاصيل حول نظرة اميركا لدور النفط وأثره على أمنها انظر : Harold Brown : Thinking about National Security, Westview Press, Colorado, 1983 .

١١ـ نص مباحثات الوفد العراقي مع الوفد الاميركي في جنيف ·

١٢ـ أعلن السيد عرفات ذلك في مؤتمر صحفي عقده في نادي الاعلام في بغداد في صيف عام ١٩٧٢ ·